

إدارة الفلاحة وتحديث الزراعة الاستعمارية بتونس

د/ ناجي كشيدة

كلية الآداب - سوسة -

الجمهورية التونسية

الكلمات المفتاحية: الزراعة- الإدارة الاستعمارية – الزيتون - إدارة الفلاحة –

المردودية- الأهالي.

الملخص:

نتناول في مقالنا هذا موضوع السياسة الزراعية التي تبناها الاستعمار الفرنسي في البلاد التونسية منذ إرساء نظام الحماية سنة 1881م، وتأسيس إدارة الفلاحة التي صبغت بطابع تحديتي قصد النهوض بقطاع مثل محور العملية الاستعمارية بتونس، وهي تندرج ضمن سياق استعماري جديد جوهره تنشيط الاستيطان، وإعطاء الأولوية المطلقة للقطاع الفلاحي باعتباره القاطرة الجارة لاقتصاد البلاد التونسية.

Résumé:

dans cet article, on parle de la politique agricole adaptée par le colonisateur français en Tunisie, depuis l'installation du Système Protégeant en 1881, également la fondation de l'administration de l'agriculture modernisée.

Elle est conçue pour booster quelques domaines comme:

- l'axe de colonisateur en Tunisie, qui de fait un nouveau contexte colonial visant au colonialisme.

- favoriser le secteur agricole car il est l'âme de l'économie tunisienne.

لا يختلف عاقلان في محوروية الأرض كعامل إنجاح وعنصر تدعيم للمنظومة الاستعمارية في الآن ذاته، ولم تخرج الأراضي التونسية عن هذه القاعدة حيث كانت هدفا سهلا في أغلب الأحيان للهجمة الاستيطانية منذ إرساء نظام الحماية سنة 1881م ويجوز الحديث حتى قبل ذلك التاريخ. اهتمام الفرنسيين بالأراضي التونسية كان واضحا وشاملا،

خاصة مع تبني سياسة الاستعمار الزراعي الرسمي منذ 1892م، من خلال إرساء منظومة قانونية وتشريعية خاصة وجدّ ملائمة. رغبة استعمارية لم تغفل حتى المناطق الموجودة بالجنوب أو ما يعرف بأراضي التراب العسكري، والتي يمكن الاستفادة منها و بالرغم من قلّة خصوبتها مقابل امتدادها الجغرافي فإنّ الرغبة الاستعمارية كانت حاضرة للتوطين و الاستغلال.

1- محورية الأراضي السيلية بصفافس: لمحة عامة

يتكون المجال الجغرافي للمراقبة المدنية بصفافس أساسا من قيادة جنيانة شمالا، وقيادة الصخيرة جنوبا، والمركز الإداري صفافس، وهي بذلك تمثل أهم مركز إداري في جنوب البلاد. كانت هذه المنطقة محل اهتمام الإداريين¹ والمعمّرين الفرنسيين لما تضمنته من إمكانيات فلاحية يمكن استغلالها في الزراعات الملائمة لمناخ الجهة: جوهر الاهتمام تمثل في وجود سهول ممتدة بظهير مدينة صفافس عرفت انتشارا لغراسة الأشجار المثمرة كالزيتون واللوز. هذه السهول هي ما اصطّح عليها بالأراضي السيلية التي تمتد على مسافة تتراوح ما بين 60 و70 كم² حول صفافس، وقد تحدّث بعض الرحالة من الفرنسيين³ عن وجود جنان حول أسوار المدينة ممتدة على قطر 12 كم مشجرة زيتاين ولوز وغيرها.

استمدت هذه الأراضي تسميتها من عائلة سيالة الصفاقسية، والتي منحها إياها علي باي الثاني أواسط القرن الثامن عشر (1759) على سبيل الالتزام، وكانت هذه العملية تتجدّد عند كل اعتلاء جديد للعرش الحسيني.

لكن اضطراب أحوال الدولة عامة، وتراجع موارد الخزينة، إضافة إلى التغيّر الذي عرفته أهواء الحكام، جعلت الباي محمّد الصادق (1859-1882) يسترجعها نهائيا سنة 1871 وتكون بذلك قد انطوت تحت لواء أملاك البايليك.

ومنذ فترة طويلة مثلت هذه السهول المقدرّة مساحتها بـ 900 ألف هكتار موطنا للعديد من فرق المنطقة خاصة، كالمثاليثة المهاذبة ونفّات وما تبعها من فروع وعروش: كأولاد غيدة، أولاد نجم، الشماترة وغيرهم. كما أنّ استراتيجية موقعها، ومجاورتها للعديد من مواطن القبائل الأخرى، كالسواسي جلاص والهمّامة جعلها تعرف استقرارا موسميا

لهذه الأخيرة بحثا عن المرعى لقطعانها، هذه الحالة ولدت في الغالب صراعات ونزاعات قبلية كانت في معظمها متمحورة حول نقاط المياه والمراعي، لكنها مثلت سمة من سمات تلك الفترة لا غير. غير أنّ القبائل المتركزة بظهير صفاقس منذ فترة كانت تعتبر نفسها صاحبة حق على هذه المساحات نظرا لدوام استغلالها ولعراقة توطيئها. لكن وبتبلور فكرة الاستعمار الزراعي الرسمي وظهور مفهوم أراضي الدولة ستفقد أجزاء هامة من مجالها الحيوي وستكون أول الخاسرين.

إنّ تدخل الحكومة التونسية و"بيلكة" هذه الأراضي لم يكن سلبيا ومانعا لنسق الغراسات إذ أصدر الباي بتاريخ غرة محرم 1288 (23 مارس 1871) مرسوما⁴ يقضي بإمكانية الحصول على مقاسم لغراستها زيتونا بعد توجيه طلب في الغرض لقايد صفاقس. وبناء على هذا المرسوم و بعد تركّز الحماية طالب الفرنسيون المستقرون هناك بمواصلة العمل به، حيث لعب المراقب المدني للجهة جيروم فيدال⁵ Jérôme Fidelle منذ تعيينه سنة 1887 دورا مهما للترفيغ من نسق الاستغلال، وسعى إلى جلب اهتمام المشرفين على إنجاح المشاريع الاستعمارية. كما نادى المعمّر ونائب رئيس بلدية صفاقس ثُو Gau، بضرورة استغلال هذه الأراضي، ومنحها للمعمّرين، وجدّد دعوته أمام الندوة الاستشارية⁶ المنعقدة في دورتها الأولى بالتأكيد على وجود 33481 شجرة زيتون منتجة وقديمة، إضافة إلى مليون شجرة صغيرة "حويلة" (بالمفهوم العامي المتداول) وبقاء مساحات شاسعة تنتظر الاستغلال. وهي نفس الفكرة التي نجدها عند كل العارفين بالمجال الصفاقسي وخاصة الفرنسيين منهم من خلال تأكيدهم على "وجود عوامل هامة للاستعمار بجهة صفاقس توفرها غراسة الزيتون"⁷. وقد حصل الالتقاء بين هذين الإداريين وبورد حول ضرورة استغلال المجال المحيط بمدينة صفاقس.

فلئن كانت سهول التل التونسي توفر الزراعات الكبرى، وسهول قرمبالية مهدّت لميلاد غراسات الكروم والقوارص، فإن جهة صفاقس تمثل المناخ الأمثل عند الفرنسيين لاستعادة أمجاد "إفريقيا" المستعمرة الرومانية التي وقّرت الزيوت عبر مرّ العصور. هذا الاهتمام الفرنسي بغراسة الزيتون بسهول صفاقس يتنزل في ظرفية عالمية عرفت فيها

أسعار الزيوت ارتفاعاً⁸، وتدني القدرة الإنتاجية لبعض الدول خاصة في حوضي المتوسط. وأصبحت هناك نواة لتركز فرنسي بالجهة من خلال تقديم الفرنسيين⁹ لـ 21 مطلباً للحصول على مقاسم بالجهة تغطي 18937 هكتار في أواخر 1891 مقابل 10 آلاف هكتار يتصرف فيها 302 ملاكاً أهلياً في غالبهم من أعيان القبائل والفرق¹⁰: فشيخ الشماترة مثلاً كان يتصرف في 500 هكتار، وخليفة أولاد سليم له 1130 أصل زيتون و120 هكتار والأمثلة كثيرة ومتعددة بريف الجهة عن مثل هذا الاحتكار "المجالي و الفئوي".

كما يمكن تفسير هذا الانحصار في المساحات إلى عمليات الترحيل أو الهجرة البشرية¹¹ التي عرفت بالجهة خاصة بعد انتهاء معركة صفاقس وبسط الفرنسيين هيمنتهم على المنطقة، وما يتبع ذلك من قمع وتسلط على المقاومين. إضافة إلى حالات العداء المتواتر بين العروش ومختلف الفرق، دون التغافل عن المعطيات الديمغرافية (ضعف الكثافة) والمستوى التقني المتخلف إن لم يكن بدائياً عند سكان الجهة مع سيطرة طليفة لنمط الترحال بالرغم من وجود بعض المراكز السكانية.

تاريخ هذه الجهة سيُعرف تحوُّلاً جذرياً منذ 1892، فهذه السنة التي تمثل حدّاً فاصلاً بين تجربتين مختلفتين من الاستعمار الزراعي الفرنسي لتونس، فلئن لم تكن نتائج التجربة الحرة في مستوى التطلعات الإدارية والرسمية الفرنسية نظراً لعدد مواطن الخلل فيها وتأثيرها السلبي على الرصيد البشري والعقاري المستحوز عليه بتونس. فإن المرحلة الجديدة ستعرف تسخيراً تدريجياً للمجال التونسي سينطلق من أرياف صفاقس-لسوء حظها-، وتحديدًا من الأراضي السيلية التي اعتبرت أراضي تابعة للدولة ومن خلالها شرع لدولته¹² Domanialisassions الكثير من المساحات الزراعية التونسية. ولقد لعبت التشريعات والقوانين دوراً أساسياً في بلورة هذا المشروع الاستعماري من خلال إصدار قانون 8 فيفري 1892 والمتعلق بالتفويت بالبيع في الأراضي السيلية.

- فاعلية قانون 8 فيفري 1892:

صدر الأمر العليّ المنظم لعملية بيع الأراضي السيلية بصفاقس بتاريخ 10 رجب 1309 الموافق لـ 8 فيفري 1892 عن باي تونس على باشا (1882-1902) وقد تضمن بايين

و12 فصلا احتوى الباب الأول على 4 فصول اهتمت بتسوية الملكيات المتحصل عليها بموجب قانون غرة محرم 23/1288 مارس 1871 والتي نُعتت بالقديمة. في حين تطرق الباب الثاني بفصوله الثمانية (8) إلى الطرق الكفيلة بالحصول على مقاسم جديدة، من خلال تقديم مطالب في الغرض لقايد صفاقس (ف5) متضمنة تحديدا للمكان مساحة المقسم وحدوده كما يلتزم الراغبون في الحصول على مقاسم إحياءه وتشجيرها في مدة لا تتجاوز أربع سنوات (ف6) مع تهديد الحكومة باسترجاع المقسم في حال تمّ الإخلال بذلك. ولمزيد التشجيع على اقتناء هذه الأراضي أقرّ ثمن الهكتار الواحد بـ10 فرانكات (ف7).

وفي خطوة مكتملة وأخيرة يتحصل المتقدمون على شهادة ملكية ورسم طوبوغرافي للقطعة (ف9)، ملكية تكون نهائية وباتّة. من خلال هذا القانون الصادر عن الباي يمكن الإشارة إلى نجاح السلطات الفرنسية في إجباره على ذلك وتفاذي أي إشكال مباشر مع سكان الفرق البالغ عددهم 35 ألف نسمة¹³ حسب التقديرات الرسمية الفرنسية. وهي بذلك تكون قد استخلصت العبرة من تجربتها بالجزائر في محاولة منها لإصلاح البعض من أخطاء الماضي.

فالإدارة الفرنسية راهنت على قوة التشريعات والقوانين التي أثبتت فاعليتها منذ القانون العقاري لسنة 1885. هذا القانون الجديد سيمثل أداة فعالة لهب مئات الآلاف من الهكتارات وتوظيفها لصالح الاستعمار الرسمي في ظلّ تغير مفهوم أملاك الدولة، والذي أصبح يستوعب كل المساحات الزراعية بتونس، والقابلة للاستصلاح والفلاحة، ولم تسلم منه سوى الأراضي القاحلة، والشطوط والسبخا وسيعرف هذا القانون أولى التنقيحات بتاريخ 10 ماي 1892 لكن الأهم هو تنقيح 2 جانفي 1895¹⁴، الذي استثنى بعض الأراضي من التسجيل والاستيلاء، لكنه لم يمنع من انتقال أغلبها للفرنسيين.

وبصدور هذا القانون تكون السلطات الاستعمارية قد مهدت الطريق لتركيز نواة فرنسية كثيفة بسهولة الجهة من خلال تسهيل التسرب العقاري الأجنبي لأهم منطقة فلاحية بجنوب البلاد، صمدت لبعض الوقت أمام شراسة الهجمة الاستعمارية. فمباشرة وبعد إصدار هذا القانون وفي ظرف 6 أشهر¹⁵ تمّ تسجيل 25 مطلباً للحصول على مقاسم

فلاحية ستمكن الفرنسيين من الحصول على ما يفوق 13 ألف هكتار وقّرت 220 ألف شجرة زيتون إضافة إلى ما غرسه الأهالي منذ فترة.

هذا النسق المرتفع من حيث عدد المطالب الموجهة لإدارة الفلاحة للحصول على الأراضي السيلية نستشفه من التقارير الرسمية¹⁶ التي أشارت إلى وجود 793 مطلباً، منها ما هو متعلق بتسوية الوضعيات القديمة، وذلك ما نصت عليه الفصول الأربعة الأولى من قانون فيفري 1892، إضافة إلى ما يتعلق بعمليات جديدة وذلك إلى حدود غرة جوان 1893 وإجمالاً تعطي مساحة تقدر بـ 65 ألف هكتار.

لكن الملفت للانتباه غلبة المطالب الموجهة من قبل أهالي الفرق وحتى أصيلي مدينة صفاقس حيث نجد 17727 مطلباً مقابل 66 مطلباً فقط صادرة عن أوروبيين، ويمكن تفسير ذلك بمسارعة الأهالي إلى تسوية وضعياتهم السابقة للقانون الجديد وخوفهم من جور السلطات (وهو ما اعتادوا عليه) وكذلك عملية حماية لما ورثوه عن الأجداد تجاه ما لمسوه من إصرار أوروبي على الاستيلاء على هذا الرصيد العقاري الهام.

بالنسبة لضعف التواجد الأوروبي إلى هذه الفترة على الأقل، تجدر الإشارة إلى بعض الثغرات التي تضمنها هذا القانون بالرغم من فوائده العديدة التي يمكن تسجيلها لفائدة الاستعمار والمعمّرين، فمن غير الجائز أن يكون الفرنسي أو الأوروبي ملماً بموقع وحدود وخاصيات القطعة التي يرغب في الحصول عليها كما أنّ أغلبهم يجهل المنطقة تماماً، إلى جانب التعقد الذي تعرفه بعض الوضعيات العقارية وهو ما عرقل طرق عمل المحكمة المختلطة Le tribunal Mixte.

هذه الوضعية جعلت الإدارة الفرنسية، وخاصة إدارة الفلاحة مطالبة بإيجاد الحلول اللازمة، والمتمثلة خاصة في الاعتماد على التقييم أو التسجيل الكلي l'immatriculation en bloc، ربحاً للوقت وللمساحة في آن واحد. هذه العملية لوحدها تتطلب مبالغ مالية خاصة بها كانت في حدود 20 ألف فرنك خصّصت من الميزانية العامة للدولة.

وبمرور الوقت أصبح الوجود الفرنسي بظهير صفاقس أمراً واقعا وذا كثافة، فبالمقارنة مع الجاليات الأوروبية الأخرى المستقرة بالجهة إيطاليين ومالطيين، سيطر أبناء المتروبول على مساحات هامة من الأراضي المفوّت فيها بمساحة تقدر بـ 19089

هكتار سنة 1892¹⁸ مقابل 1184 فقط للإيطاليين، هذا الجزء من البلاد سيكون للفرنسيين بدرجة أولى فهم جوهر المرحلة الاستعمارية الجديدة بتونس.

ولمزيد منح الوجود الفرنسي بالجهة المزيد من المجالات الضرورية تم تكوين لجنة معاينة وتحديد الراضي السيلية المنبعثة خلال الفترة (1895-1896) والتي كان هدفها "البحث عن أراضي للاستعمار الفلاحي بالجهة"¹⁹، هذه اللجنة منحت لكل الفرق المنتشرة مساحة لا تفي بحاجتها: 200 ألف هكتار فقط أضيفت إليها 40 ألف هكتار من الأعباس في حين مرّت بقية الأراضي للفرنسيين وللشركات التي عرفتها أرياف صفاقس، وهي شركات رأسمالية بعثت لأجل الاستحواذ على أكبر رصيد ممكن من الأراضي. وأول هذه الشركات بعثت سنة 1893 واستحوذت على 1100 هكتار ستضاف إليها مئات الآلاف من الهكتارات التي ستستولي عليها 7 شركات أخرى بالجهة لغراستها زيتونا، وقد أثر هذا النجاح على توجهات الشركة المالكة لهنشير النفيضة²⁰ التي عبّرت عن رغبتها في التخلي عن زراعة الكروم، والتوجه للقطاع الجديد المريح، خاصة مع الانتعاشة²¹ التي عرفتها الصادرات الفلاحية التونسية من الزيتون خاصة مع تظافر الجهود الأهلية وقوة رأسمال الأوروبيين الموظف للنهوض بالمنطقة.

لكن هذا التملك الأوروبي كان له ضحايا على الطرف المقابل، وأولهم الفرق التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى إبعادها نحو المناطق الأقل خصوبة ونادرة الأمطار. في حين كانت تعمل من ناحية أخرى على تأليب الفرق وبث الصراعات البينية²² وإثارة العصبية القبلية، وتكون بذلك قد خدمت المعمّرين من خلال إزاحة منافسين على المجال من جهة، وأيضا إزالة خطر القلاقل والانتفاضات التي من شأنها عرقلة نسق الاستحواذ الأوروبي الفاحش في منطقة اعتبرت فاتحة الاستعمار الرسمي بتونس. من خلال التحرك الإداري الرسمي القائم على التشريعات أمكن للإدارة الاستعمارية تطويع معظم المجال الفلاحي بجهة صفاقس لصالح الاستعمار الزراعي وإخراجه من النمطية وغلبة الطابع التقليدي.

سيعرف ظهير هذه المنطقة التونسية تحوّلًا جذريًا سيطبع تاريخه الحديث، من خلال تدرّجه من منطقة ذات طابع بدوي-رعوي²³ تشتد فيها الصراعات القبلية،

والتحالفات المحلية، إلى مجال فلاحي متطور، سيعرف منافسة شرسة ذات منحنى اقتصادي وتجاري، خاصة وأنّ هذا المجال الصفاقسي عامة أصبح استعماريًا بالأساس مثلت غابة الزيتون بالأراضي السيالية جوهره.

لقد مثلت العشريّة الأخيرة من القرن 19 حلقة مفصلية من الوجود الفرنسي بتونس، حيث تمكّنت الإدارة الاستعمارية من خلال سياسة التشريعات والقوانين والتسهيلات، من خلق واقع استعماري جديد قوامه التركيز الفرنسي الكثيف بالأرياف التونسية والمدعوم من قبل الحكومة، وهو ما مكن من تطويع غالبية المجال التونسي الذي أصبح سهل المنال للاستغلال الممنهج. استغلال مهد له من خلال إحداث الإدارات والهياكل المختصة كإدارة الأشغال العامة سنة 1882 كنواة أولى لما سيعرف بالإدارات الفنية، كذلك إدارة خاصة بالمالية في نفس السنة، وإدارة الفلاحة سنة 1890 بموجب أمر 3 نوفمبر من نفس السنة التي سيديرها الصحفي والمنظر الاستعماري بول بورد إلى حدود 1895 وهي فترة الإصلاحات والمبادرات بامتياز.

2- مبادرات بول بورد للنهوض بالفلاحة التونسية:

مع إطلالة العشريّة الثانية من الحضور الفرنسي بتونس أخذت ملامح تحوّل البلاد التونسية إلى مجال استعماري صرف بالتبلور، خاصة مع تكّرس ظاهرة التخصص الزراعي والتي لئن كانت حاضرة باستمرار منذ القديم، إلا أنها ستعرف المزيد من الترسّخ بعد أن فتح الباب واسعا أمام المبادرات الفردية المدعومة بكثافة من قبل الحكومة، بحيث كانت سهول الشمال الغربي مجالا لزراعة الحبوب بدرجة أولى، ووفرت سهول المراقبة المدنيّة بقرمبالية وباقي مجال الوطن القبلي الظروف الملائمة لزراعات الكروم والقوارص، وهي في الأصل زراعات استعمارية راهن عليها الفرنسيون واعتبر نجاحها مقياسا لمدى حضورهم البشري والإداري.

ومثلت سنة 1892 تدعيما لهذا التمشي من خلال تبني سياسة استعمارية جديدة رافقها تسرب نحو مجال جغرافي جديد وهام، شكّل ظهير صفاقس أو ما يعرف بالأراضي السيالية نواته الأولى. بهذه الجهة ستتركز كل الجهود لإحياء غابة الزيتون ولأجلها وضع قانون فيفري 1892 وفسح المجال لتوافد المعمرين للاستقرار والاستغلال.

في هذه الظرفية ستعمل الإدارة الاستعمارية على استعادة غراسة الزيتون بتونس وبصفة خاصة بوسط البلاد لأمجادها كما ستحرص على جعلها زراعة استعمارية

تصديرية تخدم المتروبول وبدرجة أقل المحمية. حرص تمثل في اهتمام الإداريين الفرنسيين بمستقبل هذا النوع من الغراسات من خلال التقارير والملاحظات. وقد تكفل مدير الفلاحة بول بورد من منطلق تكوينه الفلاحي ومنصبه الإداري اللذين يخولان له ذلك بدراسة واقع وأفاق هذا النوع من الغراسات بصفة خاصة من خلال تقريره الموجه للمقيم العام بتونس.

1- التقرير الحاسم لبورد حول غراسة الزيتون بالوسط:

هو في الأصل لم يخصّ لغراسة الزيتون، بل تطرق إلى غراسة الأشجار المثمرة بالوسط التونسي، وخصّ قطاع الزيتون²⁴ بحيز هام منه. وجّه هذا التقرير للمقيم العام روفيه (Rouvier) الذي جعل القطاع الفلاحي من أولى اهتماماته منذ توليه منصبه سنة 1892.

فقد أدرك الفرنسيون بسرعة ومن بينهم بورد الفارق الكبير بين واقع فلاحي قديم ميّز البلاد التونسية، وجعلها مصدرا للزيوت لمعظم المجال المتوسطي، وتركها في نفس الوقت هدفا للقوى المتناحرة بالمنطقة على مرّ العصور من جهة، وبين ما آلت إليه الأوضاع من تخلف زراعي وتراجع المساحات المخصصة لهذه الغراسات من جهة أخرى.

الإشكال التاريخي بين الأمس واليوم:

لقد طرح بورد المسألة منذ البداية "الوسط التونسي يمثل إشكالا تاريخيا عجز علم الآثار عن فكّ رموزه، وأظنّ بأنّ الحل يكمن في الفلاحة"²⁵. فمن خلال معانيته الميدانية لمعظم مناطق الوسط التونسي، متّبعاً خطّ سير من الجم باتجاه القيروان غربا وصولا إلى الحدود الجزائرية، والتخوم الشمالية لقفصة، عاندا نحو صفاقس تبين له الكم الهائل من الآثار الرومانية القديمة التي تقف شاهدا على ازدهار عمراني واقتصادي وتجاري سابق. وكما اعتقد بورد فإنّ هذه الآثار هي بقايا لمعاصر رومانية (Pressoirs) تقيم الدليل على وجود غابة هامة من الزياتين بجهة الوسط التونسي حيث مثّلت هذه المنطقة في العمود الرومانية مجالا حضريا حيويا تركز حول سبيطة (سفيطة) حيدرة (Amaedara) والقصرين وتلايت. لكن الواقع يختلف تماما بعد مرور آلاف السنين بحيث غابت كل مظاهر الحياة التجارية وتراجعت مكانة الزراعة عند الأهالي وبكامل المنطقة تقريبا ولمزيد البحث والإلمام بخفايا هذا التغيّر استند بورد عند إنجازهِ لتقريره

إلى ما دونه الجغرافيون والرحالة الذين عرفوا البلاد التونسية منذ العهد الروماني والعربي وحتى الحديث.

فالمؤرخون الرومان واللاتينيون أقروا بأن منطقة البيزاسان (Byzacène) وتقابلها جغرافيا منطقة الوسط التونسي حاليا والتي ستعرف تسميتها التغير بتغير الحضارات هي الموطن الرئيسي لغراسة الزيتون وتحديثا بإطناب عن تنامي المبادلات التجارية مع روما بفضل غراسات هذه الجهة من الزيتين. نفس هذه الوضعية الجيدة تحدث عنها المؤرخون العرب كالإدريسي والبكري الذي أكد على تصدير الزيوت إلى المشرق، والمغرب وحتى إلى بلاد الروم²⁶، وأسهب هؤلاء وغيرهم في الحديث عن ثراء منطقة المّزاق من خلال وجود غراسة الزيتون التي يتعامل معها الأهالي بكل دراية وإتقان. وقد وجد بورد في المجال المحيط بصفاقس عوامل النجاح لانطلاق غراسة الزيتون وإحياء الغابة القديمة، فألى جانب الاهتمام الرسمي المسجل منذ العهد الحسيني قبيل الحماية وملائمة العوامل المناخية، استند إلى تركيز الكتابات التاريخية على محورية هذه المدينة التي استفادت من تجارة الزيوت حيث اعتبرت مدينة من المستوى الأول²⁷. وأورد بورد تأكيد البكري على أن صفاقس تبقى مقصد كبار تجار المتوسط²⁸.

هذه الصورة الإيجابية و ذات العمق التاريخي ستعرف التلاشي، حيث صوّر الرحالة والجغرافيون الأوروبيون الحالة السيئة التي لاحت عليها المدينة التي تختزل بدورها واقع كل المنطقة إن لم نقل البلاد عامة. فالوزان الفاسي والمعروف عند الغرب بـ Léon l'Africain وجد المدينة في حالة من التراجع التام على جميع الأصعدة، كما أشار بايسنال (Peyssonnel) سنة 1784 إلى تضائل الحجم السكاني للمدينة واقتصار اقتصادها على الكفاف مع انعدام شبه تام للمبادلات التجارية.

وحتى الفرنسيون وقُبيل احتلال البلاد، كانوا على علم بما آلت إليه أحوال البلاد من تعكّر للأوضاع، وتراجع لمداخيل الدولة وضعف للرعية. وي طرح التساؤل عن الاختلاف الكلي بين ما صوّر في عهود سابقة على أنه ازدهار عمراني واقتصادي قائم بجهة الوسط على غابات هامة من الزيتين، وبين ما أصبح عليه الوضع إلى حدود القرن التاسع عشر من انهيار اقتصادي وتراجع عمراني وفتور ديمغرافي؟.

في سياق تفسيره لذلك يقول بورد بأن "العوامل المناخية لم تتغير: المجال بقي على حاله، لكن ما تغير هو تعامل الإنسان مع الموجود"²⁹، والإشارة واضحة من وراء ذلك إلى إهمال العرب لهذه الغراسات، وبصفة خاصة ما أقدمت عليه قبائل بني هلال وبني سليم من نهب وتهديد لسير الحياة بطرق طبيعية، كما أن التحامل الأوروبي والغربي صوّر الفلاح التونسي خاملاً وميالاً للتواكل، إلى جانب ضغط الجباية وقلة الموارد المالية وتقلب المعطيات المناخية. لكن بورد، وبنظرة تافؤلية، يرى أنه من الممكن إصلاح الإنسان لما أفسده سلفه وعبر عن إمكانية استعاد هذا القطاع لإشعاعه السابق من خلال تضافر الجهود الأهلي مع التقنيات الأوروبية التي يتكفل بها المعمرون الواجب إشراكهم في عملية إحياء غابة الزيتين والاستفادة من الأراضي السيالية، خاصة وأن أبناء الجهة (أهالي صفاقس وأبناء الفرق والعروش) قد بادروا قبل الاهتمام الرسمي التونسي والفرنسي بإحياء الغراسات بالمنطقة حيث سجلت أولى المحاولات³⁰ مع إطلالة القرن التاسع عشر خاصة العشرية الأولى منه، لكن النتائج كانت محدودة لتلاصق الغراسات وغياب العمل الممنهج.

وانتظر الجميع منتصف ذلك القرن (1850) ليأتي أحد الأهالي: الحاج محمد التريكي، الذي كان يشغل منصب أمين غابة الزيتون بصفاقس في فترة إنجاز بورد لتحقيقاته، ويعاين هذه النقائص، ليبادر فيما بعد بمضاعفة المساحة الفاصلة بين الزيتين لتبلغ 24 متراً، وهو ما حسن نسبياً في المردودية ومنح الفرصة للبقية للاستفادة من خبرته، وقد لاقت هذه الجهود تجاوب الأهالي الذين حذوا حذوه. واتخذ بورد هذا الفلاح دليلاً له³¹ ومساعداً في جولاته الميدانية.

تواصل هذا النسق جعل غابة الزيتين بأرياف صفاقس تغطي عشية الاحتلال 18 ألف هكتار في مجملها كنتاج لمجهود أهلي محلي. وذلك ما دفع بمدير الفلاحة إلى التنويه بهذه الجهود والتأكيد على عدم الحاجة لأي تلقين علمي دخيل³². وعاب على أهالي الجهة اقتصرهم على التناقل الشفوي لهذا الموروث وغياب محاولات التدوين، كما أنه لا يمكن اعتبار هذه الحالة استثناء، فقد تعامل العرب مع موروثهم ولفترة طويلة بالمشافهة وضاع أغلبه وحتى ما وقع تدوينه لاحقاً تعرض للتحريف والزيف.

ب- مراحل غراسة الزيتون بصفاقس:

كما هو متفق عليه يضمن مناخ الجهة لهذا النوع من الغراسات النجاح خصوصا إذا تمت العملية على تربة رملية محمّرة³³. وأكدت سائر الدراسات المتعلقة بقطاع الزيتون ضرورة القيام بالغراسة في تربة تمنح المياه النفاذ³⁴ إلى باطن الأرض وتستبعد التربة الطينية والخفيفة كذلك.

أولى مراحل غراسة الزيتون بالجهة، كما غيرها من البلاد، تتمثل في تجهيز الحفر التي ستحتوي المشاتل يصل عمق هذه الحفر إلى 60 صم وأحيانا 75 صم³⁵، عند الاصطدام بالأرض الوعرة. لكن هذه المعطيات المتعلقة بالعمق تبقى موضع شك، خاصة إذا علمنا أنه بجهة الساحل مثلا يصل العمق إلى متر أو أكثر، وكذلك المحيط (الأضلع) وللعلم دور هام على مستوى حماية الشجرة من اشتداد الجفاف وتعاقبه، وعادة تتم عملية الحفر في فصل الخريف للاستفادة من أمطاره.

بعد هذه الخطوة وإتمام عملية الغراسة، تكمن المهمة الأساسية في حماية الغراسات الحديثة من الجفاف والعطش من خلال تواتر عملية السقي التي تبقى ضرورية طوال السنة الأولى بعد الغراسة وقد تتواصل حتى السنة الثانية وتعفي الفترات الممطرة الفلاح من تلك المشقة.

من المراحل الأخرى الضرورية للمحافظة على نمو الشجرة يؤكد بول بورد و استنادا إلى دليله المحلي على الأهمية القصوى لعملية الحرث التي تنطلق عادة من شهر أكتوبر لتنتهي في ماي. ويرى بورد بأنّ الفلاح الحريص على إنجاح غراساته مطالب بخمس (5) عمليات حرث على امتداد الموسم الفلاحي: عمليتان بالحرث التقليدي والمكتفي بخدش الأرض وثلاث أخرى بالمحشّة la maâcha التي يشدّد بورد على أنها ابتكار صفاقسي صرف³⁶ يسهم في القضاء على الأعشاب الطفيلية والتي عادة ما تؤرق الفلاح ك"النجم" le chiendent وتكرار مثل هذه العملية وبأوقات مضبوطة من شأنه تجهيز التربة وتمهيتها.

مثل هذه العمليات يمكن التقليل منها مع نمو الشجرة واشتداد عودها، لتصبح بعد ذلك عمليّة الشذب محور اهتمامات الفلاح بعد كلّ عملية جني للمحصول، هذه العملية التي يقوم بها أناس مختصون تساهم في تهوية الشجرة ومنحها شكلا ملائما،

وترتبط حدتها بوفرة الإنتاج: فكلما كان الإنتاج أوفر كان الشذب أكثر حدّة ومزيلا لأقصى عدد ممكن من الأغصان ضمنا لصابة مقبلة جيدة ويدفع للشذّاب 3.5 فرنك يوميا³⁷.

هذا التقرير جاء ملما بواقع غراسة الزيتون والتي تعرف كغيرها من الأشجار والنبات تواترا لبعض الآفات المهذّدة للشجرة والثمرة على حدّ السواء. حيث تمت الإشارة لمرض "الكحلة"³⁸ le noir والمعروف كذلك عند الأهالي "بالمَن" الناتج عن حشرة صغيرة تستوطن الأغصان، وتفرز مادة سامة تسقط الأوراق والثمار قبل نضجها، وتعرف انتشارا واسعا في الغراسات المحاذية للبحر وبالأخصّ "الأصول الضعيفة"³⁹.

أما الآفة الأخرى التي أوردها مدير الفلاحة في تقريره فهي المعروفة بـ le ver⁴⁰ واسمها Dacus oleae ولا تعطي مرادفا للدودة في اللغة العربية بل إنها إفراز خاص بحشرة مضرّة بالزيتان.

وتمثل الرياح الصيفية الحارة والجافة بالبلاد أو ما يعرف "بالشهبلي le Sirocco" الوسيلة الأنجع للقضاء عليها برغم تأثيرها السلبي على الغراسات الضعيفة والصغيرة. ولئن اكتفى التقرير بذكر هاتين الآفتين دون غيرهما، فإن شجرة الزيتون تبقى عرضة لبعض الآفات الأخرى: منها الفطري الذي يصيب الأغصان ويؤدي في بعض الأحيان إلى هلاك سريع للشجرة⁴¹. إضافة إلى ذباب الزيتون والذي تختلف تسميته بين شمال البلاد وجنوبها.

لكن تبقى الطيور المهاجرة أكثر فتكا وضررا بالزيتان، حيث تعرف منطقتنا الساحل و صفاقس قدوم أعداد هامة منها قبيل عمليات الجني، وتهدّد الثمار بالأكل والإتلاف. والمتعارف أن إبعادها يتم بطرق متداولة كالصياح وضرب الأواني القصديرية⁴²، ليتطور ذلك بعد تلك الفترة ليصل إلى استعمال السلاح الناري للترهيب.

وعموما يبقى التأثير السلبي لمختلف هذه الآفات والأمراض محدودا في غالب المواسم، وتقتصر الخسائر على الزيتون الضعيفة والمغروسة بجانب البحر أو التي تعاني إهمالا وذلك نادر الحصول بوسط البلاد وبسهول صفاقس خصوصا.

ج- دور المغارسية:

نجاح هذه الغراسات بريف صفاقس يعود أساسا- إضافة إلى ما ذكر- إلى اعتماد الملاك على عمال فلاحيين مختصين في مثل هذه القطاعات من خلال إبرام نوع خاص من العقود هي عقود المغارسية: الذي يربط صاحب الأرض بأحد المزارعين الذين يتم انتدابهم من أرياف الجهة. ويسند إلى المغارسي جزء من الضيعة لا تتجاوز مساحته عادة الـ10 هكتارات مع إمكانية حصوله على أضعاف ذلك⁴³، مثل هذه العقود هي في الأصل نوع من العمل المشترك بين الطرفين، فالمالك يقدم الأرض في حين يساهم العامل (المغارسي) بمجهوده العضلي، ومعرفته بالعمل مع توفير المستلزمات الضرورية: كأدوات الحرث والدواب الصالحة للجر...

وقد تحدّث بورد عن رصيد بشري هام توقّره قبائل المثاليث للعب دور المغارسي، ويذكر وجود ألي مغارسي إضافة إلى ما توقّره العروش والفرق من يد عاملة مختصة. هذه الشراكة بين الطرفين تنتهي عادة بعملية قسمة عادلة تكون مناصفة للأرض لما احتوته من أصول زيتون. تتم هذه العملية (القسمة) غالبا في السنة الثامنة⁴⁴ من تاريخ الغرسة في حين يرى بعض المهتمين بالشأن الفلاحي بأن هذه الخطوة تحصل على الأرجح بين السنة العاشرة والخامسة عشر. وعموما تحصل القسمة والشجرة قد دخلت طور الإنتاج وبعد أن أوفى كلا الطرفين بالتزاماته.

لكن تحدث الاستثناءات وتؤجل هذه العملية لمدة تصل إلى 20 سنة⁴⁵ ويرجع ذلك إلى رغبة الملاك في تأييد شراكته مع المغارسي لإخضاعه والعمل على استغلاله. وقد دعا صاحب التقرير صراحة إلى ضرورة اعتماد المعمرين المتحصّلين على ملكيات بالجهة على المغارسية أصيلي أرياف صفاقس المتقنين لقواعد العمل الفلاحي والملمّين بكل مراحل غرسة الزيتون. ويذهب بورد برأيه إلى انسجام تام بين الطرفين وتكافؤ في الفرص. وتكون الأوضاع المعيشية وظروف العمل أفضل ممّا كانت عليه من الفلاح الأهلي بالنسبة للمغارسي.

د- تفاؤل بالمردودية:

تبقى مسألة إنتاج شجرة الزيتون و مردوديتها في ارتباط وثيق بنجاعة العمل الفلاحي وبجهازية الأرض إلى جانب ما تجود به السماء. ومن منطلق تحقيق هذا التقرير

لجملة من الأهداف المسطرة مسبقا، كتشجيع الاستيطان الفرنسي بالجهة، ومضاعفة نسق الاستحواذ على أراضي الجهة، يبدو بورد شديد التفاؤل بمستقبل قطاع الزيتون على صعيد توسع المساحات وأيضا المراهنة على قدرته على تعويض التكاليف المالية التي قدرها بـ 518 فرنكا لمساحة 10 هكتارات تحتوي على 200 أصل زيتون بعد أن كان العدد أقل من ذلك اعتمادا على الطريقة الأهلية في الغرسة⁴⁶.

لكن سرعان ما تنخفض هذه التكاليف عند إتمام القسمة واسترجاع المالك للتسبقات المدفوعة للمغارسي إلى جانب اكتمال نمو الأشجار وتجاوز المراحل الأولى التي تتطلب عناية خاصة مع الأخذ بعين الاعتبار خضوع الأشجار منذ السنة الخامسة عشر لضربة الكانون المقدر بـ 45 سنتيما (0.45 ف) للشجرة الواحدة⁴⁷. وذلك ما يفضي إلى ارتفاع المربح المتأتية عن الهكتار الواحد بحيث تصل 68 فرنكا بعد اتباع الطريقة الأهلية التقليدية في الغرسة أي 17 شجرة بالهكتار و80 فرنكا عند تبني الطريقة الأوروبية، التي تجعل من الهكتار الواحد يحتوي على 20 شجرة.

لكن المتأمل لمختلف مراحل الإنتاج والنمو يجد أن الفلاح مجبر على الانتظار لعدة مواسم لجني المحاصيل والأرباح: فشجرة الزيتون تدخل طور الإنتاج الفعلي بعد خمس عشرة سنة من غراسها، ولتصبح ذات مردود هام ومستقر عليه الانتظار لخمس سنوات إضافية⁴⁸. وهذا ما يجعله ملزما على إيجاد البديل طوال هذه الفترة. وحتى بعد أن تدخل الشجرة في طور الإنتاج تكون الصابة في حال تذبذب بين الضعف والتوسط، وتسجل الصابة الجيدة مرة كل ثلاث أو أربع سنوات⁴⁹، ويمكن اعتبارها المتنافس الوحيد للفلاحين، وخاصة للمغارسية لتعويض أتعاب سنوات طويلة من الانتظار والعمل الشاق مثل فيها دور الرهينة عند المالك.

- تقديرات بورد حول ثمن و مردودية شجرة الزيتون⁵⁰:

المردودية			ثمنها بالفرنك	عمر الشجرة
زيتون	زيت	نقدا (ف)		
لم تدخل طور الإنتاج الفعلي			15-18	10 سنوات

15 سنة	40-35	30 ل	6.9 ل	2.15 ف
20 سنة	50-45	45 ل	10.3 ل	4 ف

هذه الأرقام التي يتشَبَّثُ صاحبها بمطابقتها للواقع الفلاحي بجهة صفاقس بنسبة كبيرة، يمكن اعتبارها من قبل المقدمين على اقتناء مساحات لتشجيرها واستغلالها محقّزة ومشجّعة إلى أبعد الحدود، لكن البعض من الملمّين بخصوصيات البلاد ومعطياتها الاقتصادية والتجارية اعتبروها ضرباً من ضروب الخيال حيث صنّفها رجل الاقتصاد و المنظر الاستعماري الفرنسي بول لروا بولي Paul Leroy Beaulieu روايات ألف ليلة وليلة⁵¹. لكن تقديرات بورد المستقاة من عنصر أهلي متصل مباشرة بالأرض وجدت مساندة وتأكيداً من قبل المختصّين الفرنسيين في المجال الفلاحي حيث يذهب المتفقد الفلاحي مينانقوا Minangoïn في تقريره إلى أبعد من ذلك بكثير من خلال تأكّيده على أهمية إنتاج شجرة الزيتون في الموسم الفلاحي 1898-1899 وهو من المواسم الجيدة:

- مردودية شجرة الزيتون بصفاقس خلال الموسم الفلاحي 1898-1899⁵²:

المردودية		عمر الشجرة	
زيتون	زيت	نقدا	
40 ل	4 ل (10%)	3.2 ف	10 سنوات
70 ل	10.5 ل (15%)	8.4 ف	15 سنة
100 ل	20 ل (20%)	16 ف	20 سنة
120 ل	30 ل (25%)	24 ف	25 سنة

كما تطرق مينانقوا إلى الصابة الجيدة جدا التي عرفتها غابة الزيتون بصفاقس في الموسم الفلاحي 1893-1894 أي مباشرة بعد إنجاز بورد لتقريره، وكأن الجهة أرادت منح بورد المزيد من المصداقية والواقعية.

لقد كان رأي الأخير أكثر تفاؤلاً من بورد الذي منح الشجرة إمكانية الإنتاج في السنة الخامسة عشرة، وأكد ضعفه في العاشرة مستندا على المصادر الأهلية، فإنّ متفقد الفلاحة يمنح هذه الغراسة قابلية الإنتاج منذ العشرية الأولى بعد غراستها. كما

سجل ثمن اللتر الواحد من الزيت خلال الفترة الفاصلة بين التقريرين (7 سنوات) ارتفاعا ملحوظا بـ15 سنتيما ليصل إلى 0.8 فرنك سنة 1900⁵³ وهو يعتبر في أحد أوجهه تأييدا لتوجّه بورده.

د- ردود الفعل الرسمية وغير الرسمية عن التقرير:

مثل هذه التقارير الصادرة عن كبار الموظفين الفرنسيين بالبلاد لم تكن لتمرّ في الخفاء خاصة وأنها صدرت عن شخصيته مثلت الإدارة الاستعمارية خير تمثيل في تطبيق برامجها الاستعمارية التوطينية وفي ظرفية مفصلية بالنسبة للوجود الفرنسي بتونس. الصدى الإيجابي لهذا التقرير ترجمته رغبة المتروبول في الحصول على ثلاث نسخ منه عن طريق الإقامة العامة⁵⁴. وتأكّد هذا الطلب ثانية في فترة وجيزة لا تتعدّى الشهرين من خلال تكليف وزارة الخارجية⁵⁵ للمقيم العام روفيه بنقل التهاني لبورد بعد نجاح تقريره، ورواجه عند الأوساط الرسمية بباريس، وطلب خمس نسخ أخرى. ف"التهافت" الرسمي أصبح واضحا وجليا على هذا التقرير، في حين كانت العشرات من التقارير الأخرى والمتطرقة لعدة جوانب تهم المتروبول ومستعمرتها لا تعدو أن تبقى مجرد مراسلات بين الإدارات الاستعمارية. وهذا التجاوب في حدّ ذاته يعتبر مساندة لمساعي بورده بتونس والمشجّعة على الاستيطان والاستقرار بمجال لطالما بقي بعيدا عن أعين المعمرين. بعد هذا التجاوب الرسمي السريع كان تقرير بورده محل اهتمام معاصريه والمهتمين بالشأن الاستعماري بتونس، حيث أكد شارل ريبان على ثراء هذا التقرير بالقول: "تبقى كل صفحاته للمطالعة بكل تمعّن"⁵⁶. إذ بفضل ارتفاع نسبة الأراضي المخصصة لزراعة الزيتون، وأخذ هذا القطاع أبعادا أخرى.

كما اعتبر بورده حاملا لفكرة رائدة حول مجال شاسع وشبه جاف أمن بإمكانية إحيائه واستعادته لأمجاده. وبالرغم من معارضة الكثيرين فقد نجح في استمالة أصحاب القرار والميسورين، من خلال تركيز الشركات الاستعمارية بريف صفاقس منذ 1893، إلى جانب قدوم الكثير من المعمرين الذين كان لهم نصيب من هذه الثروة العقارية بريف صفاقس.

2- تفعيل قطيع الضأن التونسي: مبادرة نموذجية لبورده:

أنجز هذا التقرير⁵⁷ استنادا إلى ما استخلصه السيد مراس Mares متفقد الفلاحة⁵⁸ بالبلاد من نتائج تتعلق بالقطيع التونسي من الأغنام خلال جولته بمعظم المراقبات المدنية، وأيضا الملاحظات التي وجَّهها المراقبون المدنيون للمقيم العام كردّ على الاستمارة التي وجهها لهم بتاريخ 28 ماي 1892⁵⁹ لتقييم القطيع بتونس. إضافة إلى الرغبة التي سادت كل الأطراف المسؤولة عن القطاع الفلاحي بنية تطوير مختلف جوانبه من إنتاج زراعي وحيواني وجعله في نهاية المطاف موظفا لصالح الاستعمار والمعمّرين.

واستنتج مدير الفلاحة أنه بالرغم من الإجراءات المتخذة لتشجيع المربين والفلاحين، فإن النتائج كانت دون المأمول، فلا الأهالي طوّروا طرق التعامل مع قطعانهم، ولا المعمرون جعلوا هذا الاختصاص من أولى اهتماماتهم لذلك نجده يعطي تشخيصا متميزا لواقع قطيع الأغنام بالبلاد.

1- تشخيص واقع القطيع التونسي:

بناء على المعلومات التي وقَّرها المراقبون المدنيون يؤكد بورد على محدودية حجم القطيع التونسي من الأغنام عدديا والذي قدّر بـ 1.223.481 رأس⁶⁰ وهو ما يمثل ربع (1/4) القطيع الموجود بالجزائر. هذا العدد اعتبر ضعيفا وبالإمكان مضاعفته ما بين خمس وستّ مرات⁶¹ خاصة وأن بعض مناطق البلاد توقّر فرصا سانحة لانتشار أعداد هائلة كامتداد السهول وتوفر المراعي وكذلك تراجع عمليات النهب والسرقة التي كانت في السابق سائدة بين العروش والفرق. لكن وقع التغافل عمّا سبّته سياسة إبعاد القبائل للاستحواذ الاستعماري على معظم المجالات التي مثلت سابقا أهم المراعي وانحسار القطيع بالوسط والجنوب أي بالمجال الجاف والقاحل.

فكيف كان التوزيع الجغرافي للقطيع بالبلاد التونسية؟

لقد كشفت المعطيات التي وقَّرها المراقبون المدنيون تباينا واضحا لتوزيع القطيع بين مختلف المراقبات.

توزيع قطيع الأغنام بالمراقبات المدنية في موفى 1892⁶²

العدد (بالألف رأس)	المراقبات المدنية
154000	المراقبة المدنية بالقيروان
138000	المراقبة المدنية بسوسة
114680	المراقبة المدنية بالكاف
53812	المراقبة المدنية بتونس
52761	المراقبة المدنية بباجة
40319	المراقبة المدنية ببزرت
34500	المراقبة المدنية بصفاقس
27107	قيادة نابل
23692	المراقبة المدنية بمكث
20430	المراقبة المدنية بسوق الإربعاء
12467	قيادة جربة
10700	المراقبة المدنية بتوزر
15	حلق الوادي
683405	المجموع

الملاحظ أن المراقبات المدنية التي تحظى بعدد هام من الضأن هي تلك التي ضمت قبائل أو عروشا عرفت بعراقة ممارستها للنشاط الرعوي، فقبيلة جلاص بالمراقبة المدنية بالقيروان وبمختلف عروشها ينطبق عليها هذا المثال إلى جانب المراقبة المدنية بسوسة والتي ضمت في جزئها الشمالي عروش أولاد سعيد، وجنوبا قبائل السواسي، والتي تبقى في اتصال مباشر مع جيرانها كجلاص والهمامة، بالإضافة إلى شساعة المجال الجغرافي لهذه المراقبة، في حين وفرت جهة الكاف كل عوامل النجاح لتواجد القطيع من خلال امتداد السهول، وخاصة ما يمكن أن تستفيد منه القطعان من مجال للرعي بعد عملية الحصاد بالمساحات الممتدة، لكننا لا نجد نفس هذا الحجم الهائل فكل من مراقبتي باجة وسوق الإربعاء.

في حين تبقى محدودية العدد بمراقبة توزر منطقية لعدة أسباب مناخية وطبيعية لا تتلاءم معها مثل هذه الحيوانات وتوجه الأهالي نحو تربية الإبل والجمال. أما

وبالنسبة لمنطقة التراب العسكري، فقد كانت الأعداد كالاتي وفق الأرقام التي أوردتها ضباط مصلحة الاستعلامات التي يخضع لها هذا المجال:

توزع القطيع بالتراب العسكري في موفى 1892⁶³

العدد (بالألف رأس)	المنطقة الإدارية
169890	دائرة قفصة
122000	فريانة
94000	قابس
80300	الوحدة الإدارية بمدنين
40000	دائرة تطاوين
16787	عين دراهم
13400	الوحدة الإدارية بقبلي
4200	دائرة جرجيس
539977	المجموع

اعتمادا على هذه الأرقام يمكن تأكيد رأي بورد القائل بإمكانية مجاوزة القطيع لهذه الأرقام واستغلال المساحات المتوفرة. لكن من الواضح بأن عدة العوائق قد تقف حائلا دون ذلك فمناخ معظم جهات البلاد يتميز بالجفاف، انحباس الأمطار وعدم انتظامها، وانعدام المحزونات العلفية، مع تواتر السنوات الجافة والإمكانات المحدودة للمربين. ولعل الفارق في العدد بين ما توفره المراقبات المدنية (683504) رأسا وما يوفره التراب العسكري (539977) رأسا خير دليل على تأثير المناخ التونسي على هذا القطاع. وبالنسبة للتنوع الغالبة من هذه الحيوانات فهي من النوع ذي "الليّة الكثيفة"، وتسمى في بعض المصادر بالخروف ذي الذيل الكبير مع استثناءات بوجود ما بين 50 و 60 ألفا⁶⁴ من النوع ذي الذيل الصغير⁶⁵ المجلوبة من الجزائر. وتنتشر العديد من التسميات والأنواع: ك"المرزوقي" بجهة الجنوب الغربي والمفضل، لوفرة الحليب الذي يوفره، إلى جانب نوع آخر بالمناطق الشمالية الغربية للبلاد.

وفي سياق تفسيره لمحدودية حجم القطيع بالبلاد يشدد بورد على غياب التجهيزات الضرورية لإيواء مثل هذه الحيوانات: كالمأوي⁶⁶ والاصطبلات، والانعدام شبه الكلي للمخزونات العلفية التي تعتبر ضرورية خاصة عند الفترات القاسية والجافة وسجل بالمراقبة المدنية بمكثر⁶⁷ الاستثناء من خلال منح بعض فلاحي الجهة العلف لقطعانهم في فترات تساقط الثلوج.

إضافة إلى ذلك كان لاشتداد الجفاف وخاصة لاستمراره الأثر السلبي على نمو عدد الرؤوس بكامل البلاد، بحيث كانت الخسائر فادحة⁶⁸ كما حدث سنة 1881. أمام ندرة المراعي وانحسارها بالمناطق الشمالية يجبر أغلب المربين بكل من الوسط و الجنوب على توجيه قطعانهم نحوها.

كما تنطلق هذه العملية المألوفة في فصل الخريف لتنتهي مع حلول الربيع، لتشمل معظم المراقبات بالبلاد حيث تعرف توجيه قطعان المراقبتين المدينتين بكل من تونس وبنزرت نحو سهول القيروان و صفاقس، وتصل في بعض الأحيان وللضرورة إلى منطقة الأعراض (سهول قابس)، بينما تكون جهة الوسط الغربي الوجهة الرئيسية لقطعان مراقبات الشمال الغربي. مثل هذه العمليات يقوم بها الرعاة الذين يتم اختيارهم حسب مهاراتهم وإلمامهم بأماكن المراعي، وينحدر هؤلاء في الأغلب من قبائل الفراشي، جلاص، والهامة وفريق عكار (جرجيس).

وكثيرا ما ينتج عن هذا الالتقاء المكثف بمناطق محدودة بعض التوتر المتعلق أساسا بالمراعي، أو ما يعرف بـ"العشابة"، وبالأولوية في استغلالها أو ما شابه ذلك من مشاكل هي في العادة مألوفة وعند الاقتضاء يؤول الأمر بين يدي القاضي⁶⁹. أمّا الأقلية من الفلاحين الأهالي والمتأثرين إلى حدّ ما بما أدخله جيرانهم الأوروبيون من تحديث وتركيز للمأوي وتخزين للعلف، فإن قطيعهم يبقى متمركزا بملكياتهم وغير ذي حاجة للتنقل.

تأصل تربية الماشية جعل من بعض المناطق والمدن بالبلاد تعرف على أنها أسواق خاصة ودائمة بهذه النوعية من الحيوانات؛ وهي في العادة أسبوعية، وتكون مقصدا للفلاحين المربين من جهة، وللراغبين في الشراء إما للاستهلاك الخاص في المناسبات الدينية والخاصة أو لمحللات الجزارة.

أهم أسواق بيع القطيع بالبلاد⁷⁰

الشمال	ماطر- العالية- منزل بوزلفة- باجة- سوق الأربعاء- طبرية- الفحص- سوق الخميس
الوسط والساحل	مساكن- جمال- العلا- حاجب العيون

وخلال عملية بحثها عن المراعي، تبقى قطعان الماشية عرضة للعديد من الأمراض المتأتية أساسا من الماء الملوث الذي كثيرا ما ترتاده الأغنام، إضافة إلى ما تسبب فيه أعشاب مراعي الشمال المكسوة بالضباب والرطوبة من أمراض أخطرها مرض "الحمرا"⁷¹ Hamra بالإضافة لبعض الأمراض التي تصيب الأمعاء والكبد⁷²، وتزيد قلة الإمكانيات والجهل بالطرق المثلى للوقاية والعلاج من مضاعفة الخسائر. هذا القطيع الذي يمثل الثروة الوحيدة لفلاحي بعض الجهات بالبلاد لم يرتق إلى مستوى يؤهله ليفرض نفسه كقطاع منتج ومصدر، ففي الجوار تصدّر الجزائر سنويا ما يفوق المليون رأس من الأغنام باتجاه السوق الفرنسية وباقي المجال المتوسطي وبت تطوير هذا القطاع أمرا عاجلا.

ب- إدارة الفلاحة تتدخل وتطرح البدائل:

أمام هذا الركود الذي يعيشه قطاع الأغنام بالبلاد، وغلبة الطرق التقليدية في التعامل مع القطيع، وأمام عزوف الأغلبية الساحقة من المربين المحليين والأجانب عن تحسين مردودية قطعانهم، تدخلت إدارة الفلاحة من خلال القيام ببعض الإجراءات العملية، بغاية التشجيع على ضمّ نوعية جديدة من الخرفان تستورد من الجزائر وتعرف بالنوع الجزائري ذي "اللينة الخفيفة"⁷³ La race Barbarine à queue fine وقد اشترط بورد لنجاح هذه العملية اتخاذ خطوتين هامتين: تترجم الأولى من خلال منح هذه النوعية "المستوردة" الأولوية على مراعي الأراضي الدولية، وإعفاء مربيها من دفع الأداء الموظف على "العشابة". وقد طبقت هذه التجربة الفريدة بالمجال الفلاحي ببوئدي على حدود

المراقبات المدنية بكل من سوسة صفاقس والقيروان والمقدرة مساحته بـ60 ألف هكتار⁷⁴. وقد لاقت هذه العملية صدى واسعا من خلال تناقل الرعاة بكل المناطق الامتيازات الممنوحة لهذا النوع الجديد من القطيع، خاصة مع شيوع فكرة تعميم هذه التجربة بباقي الأراضي الدولية المبرمجة كمراعي.

حاجة المربين لمثل هذه النوعية الجديدة، ومطالبهم بتوفير المزيد من أعدادها تجعل إدارة الفلاحة تطبق الخطوة الثانية من برنامجها الرامي لتطوير القطيع التونسي. فبمجرد أن يعبر المربي عن رغبته في تطوير قطيعه كليا و نوعيا وبعد إيداع المطالب المتضمنة للعدد المراد الحصول عليه بكل من مقر القباضة المالية بتونس، بمقرات المراقبات أو عند القياد⁷⁵، تتكفل إدارة الفلاحة بعد ذلك ممثلة في شخص متفقد الفلاحة بجلب القطعان من الجزائر وتحمل كل المصاريف المتعلقة بالعملية (الشراء، النقل، الإيواء). تتم عملية التسليم بمقرات المراقبات المدنية وبنفس الأسعار المعمول بها بالجزائر وبدون فوائد⁷⁶.

ولضمان مردودية أفضل للقطيع يرى بورد أن الوسيلة الأنجع لذلك تتمثل في تمكين المربين والفلاحين الذين بادروا باقتناء إناث من النوع الجزائري ذي الذيل الخفيف والمالكين لمأوي مخصصة لذلك من "أكباش مارينوس بلاد الكرو"⁷⁷ Marinus de la Crau المعروفة بصلابتها، وبقدرتها على التحمل، خاصة وأنها سريعة التأقلم مع مناخ البلاد. إضافة إلى أن عملية التزاوج بين هذا النوع والإناث المجلوبة من الجزائر ستمنح- بمرور الوقت- قطيعا مغايرا لما هو عليه الآن من حيث العدد والخصيات.

فهل حصل تجاوب مع ما نادى به بورد؟

لقد كان بورد يأمل في تجاوب رسمي من شأنه تكريس هذا التوجه الجديد في أسرع الأجال، ولم ينتظر كثيرا حيث صدر الأمر العلي بتاريخ 19 مارس 1893⁷⁸ المنظم لعملية بيع أكباش مارينوس وأغنام من النوع الجزائري. وأما مساهمة الأهالي في إنجاح هذه الخطوات فقد راهن عليها مدير الفلاحة واعتبر المربين المحليين عنصرا فاعلا في العملية، والتي بدورها لم تخيب آماله، حيث أقدم بعض الأعيان المحليين على تطعيم قطعانهم بهذه

الأنواع الجديدة، كما هو الحال مع قايد السواسي الذي شجع أهالي الجهة على تبني هذه الفكرة لتجويد القطيع.

كما سجل تجاوب بعض الفرق والعروش مع أفكار بورد كأحد فروع ماجر وأولاد عون الذين طالبوا بتمكينهم من الخرفان الجزائرية ذات الذيل الصغير (وذلك أحد أوجه صدئ التجربة الحكومية ببيوئي).

وإذا علمنا بأن ثمن الكيلوغرام الواحد من اللحم الذي يوفره هذا النوع من الخرفان والمقدر بـ1.7 فرنك⁷⁹ يتجاوز بـ30 سنتيما نفس الكمية التي يوفرها خروف من فصيلة ذي الذيل الكبير فإن ذلك من شأنه تحريك سواكن الراغبين في الربح المادي، خصوصا وأن عمليات البيع بالأسواق تشهد أيضا تفوقًا للنوع الجزائري بثمن يقدر بـ20 و25 فرنك للرأس مقابل 14 و 17 فرنك للنوع المحلي. هذا الفارق يعود أساسا إلى مذاقها الخاص⁸⁰ والمطلوب بشدة بالسوق التونسية والجزائرية وحتى الفرنسية التي بقيت تنتظر المنتج الحيواني التونسي.

وفي تواصل للتجاوب مع هذه التوصيات التي أوردها بورد أدرجت الغرفة المختلطة للتجارة والفلاحة بسوسة⁸¹ تربية الخروف ذي الذيل الصغير ضمن المسائل المهمة التي يجب مناقشتها منذ أول جلساتها.

وفي خطوة وقائية وضمانا لسلامة القطيع من الأمراض المعدية، كمرض الحمى أو الأكلة السوداء أو المرض العجمي⁸² ألزمت الحكومة الفلاحين بما يلي من تدابير حمائية:
-حجز القطيع المصاب لمدة خمسة عشر يوما ومنع اختلاطه بباقي القطيع
السليم منعًا لتسرب العدوى.

-منع البيع أو الذبح للاستهلاك.

-اتخاذ جملة من الخطوات عند الإصابة.

وتبقى أمام المرابين الراغبين في الاستفسار وجلب الأدوية الاتصال بإدارة الفلاحة أو بمصالحها، لكن غاب عن الأذهان صعوبة التنقل بالنسبة لكثير من المرابين بالداخل وبالجنوب. كما لا يمكن التعويل على حصول تجاوب كبير وهام، فالطرق التقليدية في التعامل مع هذه الحالات راجحة بكثرة ولا مجال لمنافستها طبيًا.

هذا التفاعل الإيجابي مع تقرير مدير الفلاحة على المستوى الرسمي المتمثل في التشريعات والقوانين، إلى جانب انصهار الأهالي في هذه العملية "التأهيلية" لقطاع ستحاول الإدارة الاستعمارية توظيفه لصالح المد الاستعماري الرامي إلى نهب معظم الخيرات، يقيم الدليل على نجاعة تدخل بورد وإيمانه بأن المساهمة الأهلية في النهوض بكل القطاعات الفلاحية أصبحت أمرا لا مفر منه.

3-حرص إدارة الفلاحة على مجابهة الآفات : التصدي للجراد مثال:

يبقى الجراد من أكثر الآفات فتكا بالمحاصيل الزراعي،ة نظرا لتواتر قدومها ولشساعة المجال الجغرافي الذي تكتسحه بأعداد هامة. في مقابل عجز دائم للفلاحين عن مقاومتها مع غياب للطرق الكفيلة بذلك. وقد منحت إدارة الفلاحة بتونس المجهود "الوقائي" أهمية بالغة من خلال التركيز على السبل الرامية إلى التقليل من حجم الخسائر الناجمة عن هذه الآفة.

في هذا السياق يشير بورد⁸³ إلى أولوية القضاء على بيض هذه الحشرات قبل عملية التفقيس، نظرا لأهمية هذه الخطوة الاستباقية في التقليل وبشكل كبير في أعداد الجراد. يتحدث بورد في تقريره عن نوعين من هاته الحشرة: فحسب التعريف الذي يضعه الأهالي تعرف الأولى بالجراد العربي وعلميًا *Stauronotus marocanus* وهذا النوع يعرف بتواتر قدومه للبلاد منذ 1888 دون تسجيل خسائر كبرى في مستوى الزراعات. أما النوع الثاني الذي اكتسح البلاد سنة 1891 والمعروف محليا باسم جراد الأدارم *Acridium peregrinum* والذي يستهلك في بعض الجهات.

يكمن الخطر المتأتي من هذه النوعية الأخيرة إضافة إلى الخسائر الزراعية في كثرة أعدادها، وسرعة تفقيس بيضها والتي لا تتعدى الشهر من تاريخ وضعها. وقد تسببت في خسائر فادحة عند اكتساحها للبلاد التونسية سنوات 1866، 1874، 1875، 1877⁸⁴. وتبقى المناطق الحدودية والواقعة على أطراف الصحراء أولى محطات هذه الآفة حيث سجلت أولى عمليات بروزها بالمراقبة المدنية بتوزر يوم 20 فيفري 1891⁸⁵، وتحديدًا بالمنطقة الواقعة بين نفطة وشط الغرسة لتلتحق بها أعداد أخرى اجتاحت معظم منطقة الجريد وقفصة، وهي المناطق التي عرفت تواترًا كثيفًا لغزو الجراد خلال فترات زمنية قصيرة الشيء الذي باغت الفلاحين، خاصة وأن مثل هذا المجال يشكو نقصا

ديمغرافيا، قد يعرقل نسق التصدي له إضافة إلى سرعة تقدم في ظل ملائمة العوامل الجوية والمناخية (غياب الأمطار وضعف قوة الرياح). وبمرور الوقت أخذت الرقعة الجغرافية التي شملها تركّز هذه الآفة بالاتساع خاصة مع تعدد محاور تقدمها. ففي اليوم الرابع من شهر مارس وصلت أعداد منها إلى واحات قابس لكنها لم تمثل تهديدا فعليا. وبداية من منتصف مارس اجتاحت منطقة تمغزة وما يعرف ببلاد السقي، وكانت الخسائر فادحة لتعرف بعد ذلك الاستقرار بكامل جهة قفصة ومن كثافة أعدادها أنها صورت من قبل المصادر وكأنها تنتقل في شكل "سحاب كثيف"⁸⁶.

ولم يمض شهر مارس حتى اكتسحت المناطق المحيطة بقابس بشكل تام. وبفضل المراسلات المستمرة للمراقبين المدنيين والقياد، أمكن رصد مجالات تحرك هذه الآفة فقد اتجهت شمالا حيث سجل وصولها يومي 4 و5 أفريل إلى كل من الصخيرة والمحرس جنوب صفاقس. وبعد ذلك بمدة سجل أقصى تقدم لها بمنطقة الجم وكذلك الشأن بفريانة على الحدود الجزائرية.

فإلى هذه الحدود الجغرافية يبقى الجراد متمركزا بالأساس في الجزء الجنوبي من البلاد وكان التخوف كبيرا من تسربه نحو الشمال حيث ستكون الخسائر أكبر بغراسات الكروم والحبوب في فترة حساسة من الموسم الفلاحي.

لقد كانت هذه التخوفات في محلها، إذ سرعان ما انتشرت هذه الحشرات بكثافة بكامل منطقة الساحل⁸⁷ وسجل الحضور خاصة بقيادات المهديّة وجمال، أين وفرت لها الزياتين والأراضي المهيّأة الأرضيّة المثلى للتكاثر من خلال ترك بيضها أرضا.

استقرار العوامل المناخية وبداية ارتفاع الحرارة ساعدت هذه الأفواج العديدة على بلوغ منطقة مرناق ومجاز الباب في أوائل شهر ماي⁸⁸ وهو ما مثّل تهديدا مباشرا لغراسات الكروم، التي حاولت السلطات الفلاحية والمدنية ضمان حمايتها كما هو الشأن بباقي جهات البلاد جنوبها ووسطها.

منذ أن سجّلت بواحد تفسّي هذه الآفة بمختلف جهات البلاد كان تدخّل إدارة الفلاحة سريعا باعتبارها الجهاز الإداري الأول المسؤول عن القطاع الفلاحي، من خلال توفير أجهزة خاصّة للقضاء على هذه الحشرات: Appareils cypriote. والتي وضع الكثير منها على ذمة فلاحي ومعمري الجهات المتضررة: 100 جهاز لجهة توزر، ومثلها لقفصة و

صفاقس، وتحسبًا لكلّ طارئ تمّ تخصيص 213 جهازًا آخر لمراقبة الكاف، أكثر والقيروان وقد وصل إجمالي هذه الآلات الممنوحة 1100 جهاز⁸⁹ منها ما هو مجلوب من الجزائر. وأمام الحاجة الماسة والأكيدة لهذه الأجهزة تمّ تركيز وحدة لتصنيعها بالعاصمة⁹⁰ وتمّ كذلك الاستنجد بسوائل مستخرجة من الزيوت الثقيلة سيتمّ توفيرها من وهران بالجزائر تستعمل للفتك بالجراد.

جهود إدارة بورد لم تكن الوحيدة للتصدّي لهذه الآفة، فقد عاضدها السلطات المدنيّة بالجهات وعن طريق المراقبين المدنيين وأعوانهم، وخاصة أعوان السلطات العسكريّة التي وقّرت العدد الكافي من الجنود والضباط، وسخّرت فرق الصباحيّة بجهات عديدة⁹¹ للقضاء على الجراد بأماكن تجمّعه.

من جانبها قرّرت الحكومة بداية من 18 مارس 1891 توفير مبلغ مالي هام لتغطية المصاريف المتعلقة بهذه العملية، وقد بلغ هذا المبلغ 25 ألف ريال ثمّ تمّت مضاعفته واستقر أخيرًا على 166 ألف ريال وهو مبلغ بإمكانه دعم المجهودات المبذولة بكافّة المراقبات.

ومع اشتداد وطأة هجمة الجراد صدر الأمر العلي بتاريخ 7 ماي 1891⁹² والقاضي بإجباريّة التصدّي لهذه الآفة على كلّ الفلاحين والمستغلّين الفلاحيين والعاملين بالضيعات والملاكين والأجراء وقد منح هذا الأمر السلطات المحليّة إمكانيّة تسخير متساكني المناطق المتضرّرة للمقاومة والتصدّي وذلك في حدّ ذاته يندرج ضمن صلاحيات القيادة.

فما مدى مساهمة الأهالي في هذه المجهودات؟

لقد كان التحرك الأهلي لصدّ تقدّم الجراد تلقائيًا منذ البداية وفي فترات سابقة لصدور الأمل العليّ. فقد أشاد بورد⁹³ بنجاح التدخّل الأهلي بواحات قابس على وجه الخصوص، حيث تمكّنوا من القضاء على ما تمركز هناك من الجراد دون الحاجة إلى طلب العون من باقي الأطراف الأخرى (إقبال بعض السكان على استهلاك الحشرات) وساندوا بكثافة المجهودات المبذولة بجهة قفصة.

كما كانت مشاركتهم فعّالة في الحضائر المتنقّلة التي تمّ تركيزها بأرياف صفاقس تحت إشراف أعوان المراقبة المدنيّة. وساهموا في إنجاز عمليّات حرق الأراضي الفلاحيّة.

نفس هذه المساهمة نوّه بها مدير الفلاحة والتي تمّت بالمراقبة المدنية بسوسة، حيث تمّ في الفترة الممتدّة بين 24 أفريل و12 ماي تجميع 60 ألف كيلوغراماً⁹⁴ من بيض هذه الحشرات خاصّة بقيادةي المهديّة وجمّال (تمّ عمليّات الوزن بحضور القيّاد). وأنتم الأهالي كذلك عمليّات حرث ممتلكاتهم بسرعة. وساهم الأهالي في إتلاف الأحرش بمناطق زغوان والفحص من خلال إشعال النار. لكون هذه التكوينات العشبيّة والنباتيّة تمثّل ملجأً لأعداد هامّة من الجراد. وبفضل هذه المجهودات كانت الخسائر محدودة بأرياف صفاقس وسوسة وفي حين كانت بالغة نسبياً بجبتي مجردة مجاز الباب.

من الملاحظ أنّ بورد لم يتجاهل هذه المجهودات الأهليّة، بل نزلها ما تستحقّه من المكانة، واعتبر تدخّل الأهالي من ملائك، مستغلين وعمّال فلاحيين ناجحاً وساهم بنسبة كبيرة في التقليل من الأضرار والخسائر.

لقد عكست جميع هذه المجهودات المبدولة من قبل مختلف الأطراف المتصديّة لأفة الجراد التقاء الجميع حول غاية واحدة، تمثّلت في حماية المحاصيل الزراعيّة حتّى ولو اختلفت زوايا النظر إليها: فالإدارة الاستعماريّة بمختلف أطرافها المتدخّلة عمّلت جاهدة على حماية أهمّ قطاع استعماري بتونس تركّزت حوله المجهودات الرسميّة وغير الرسميّة (قوانين عقاريّة أموال مستثمرة، تشجيعات وحوافز). في حين هبّ الأهالي لحماية الأراضي لكونها تمثّل أحد مقومات هويّتهم ووجودهم، حتّى وإن أصبحت الاستفادة منها في تراجع في ظلّ تكرّس واضح للهيمنة الاستعماريّة.

خاتمة :

يمكن الإقرار بأن مبادرات إدارة الفلاحة منذ تأسيسها قد صبغت بطابع تحديثي قصد النهوض بقطاع مثل محور العملية الاستعماريّة بتونس، وهي تندرج ضمن سياق استعماري جديد اعتمد منذ 1892، جوهره تنشيط الاستيطان، وتكريس التفوق العددي لأبناء المتروبول في إطار العشريّة الأولى، للحماية التي طغى عليها التنافس مع الإيطاليين. الملفت للانتباه الدور الريادي الذي لعبه بول بورد من خلال إعطائه الأولوية المطلقة للقطاع الفلاحي باعتباره الفاطرة الجارة لاقتصاد مثل اقتصاد البلاد التونسية. معظم هذه المبادرات لا تعدو أن تكون محاولة منه لتجاوز مرحلة لم ترتق لتطلعات الفرنسيين.

كما لا يمكن كذلك تجاهل المكانة التي يولمها هذا الإداري للمجهود الأهلي، المترجم بالتجاوب بكل المراحل التي مرت بها هذه المبادرات، وبأغلب المناطق التي شملها الجانب التحديثي وهو مجهود يراه ضروريا لإنجاح المرحلة الاستعمارية.

الهوامش:

- 1- أرشيف وزارة الشؤون الخارجية. سلسلة أوراق أعوان، بكرة 511، صندوق 496، ملف 1: تقرير بورد حول زراعة الزيتون بالبلاد التونسية موجه لمفوض الإقامة العامة بتونس بتاريخ 17 أوت 1891. و10.
- 2- - القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية والرأسمال الاستعماري ظهير صفاقس (1892-1929)، منشورات كلية الآداب منوبة، 1992، ص 182.
- 3- - Barabon (Léopold): *A travers la Tunisie*, J Rothschild, éditeur Paris 1887, p 169.
- 4- - أ. و. ش. خ. س أوراق أعوان، أوراق روفيه، بك 511، ص 496، م. 1، و16: تقرير مدير الفلاحة إلى مفوض الإقامة العامة بتونس بتاريخ 17 أوت 1891 حول زراعة الزيتون بالإيالة.
- 5- - البرشاني (سمير): النشاط التجاري بجهة صفاقس بين 1881 و1929، ش. دكتوراه، تونس 2002، ص 31.
- 6- - أ. و. ش. خ. م. س، و16.
- 7- - بارابون (ليوبولد): عبر البلاد.... م. س، ص 171.
- 8 - البرشاني (سمير): النشاط التجاري م. ن، ص 34
- 9 - Yazidi (Bechir): *La politique coloniale et le domaine de l'Etat en Tunisie*, faculté de la 9 Mannouba, édition Sahar, Tunis, 2005.p77
- 10- القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية م. ن، ص 68.
- 11 - م. ن، ص 66.
- 12- يزيدي (بشير): السياسة الاستعمارية.... م. س، ص 73
- 13 - القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية م. ن، ص 67.
- 14- الرائد الرسمي، أمر مؤرخ 2 جانفي 1895، الفصل الأول.
- 15- أرنوليه (فرانسوا): المقيمون العامون.. أولئك المكروهون. ناراتيون للطباعة مرسيليا 1995، ص 42
- 16- أ. و. ش. خ. س. تونس 1885-1916، بك 155، ص 226، م: مراسلة المقيم العام بتونس روفيه Rouvier إلى وزير الخارجية Deville حول الأراضي السيالية بتاريخ 7 أوت 1893. و159 وما يليها.

- 17- ن. م. و159 وما يلحقها.
- 18- بونسيه (جون): الاستعمار والزراعة الأوربية في تونس منذ 1881. المطبعة الوطنية بباريس 1962، ص172.
- 19- القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية ... م.س، ص. 65
- 20- بن بلقاسم (إبراهيم): هنشير النفيض بالوسط التونسي من 1873-1936، شهادة الكفاءة في البحث في التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1987-1988، ص. 88
- 21- البرشاني (سمير): النشاط التجاري ... م.س، ص. 34
- 22- القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية ... م.س، ص. 222.
- 23- البرشاني (سمير): النشاط التجاري ... م.س، ص. 40.
- 24- بورد(بول): تقرير للمقيم العام روفيه حول الأشجار المثمرة بالأخص الزيتون بالوسط التونسي (بالفرنسية)، تونس جوان 1893.
- Bourde (Paul): *rapport au résident général Rouvier sur les cultures fruitières et en particulier sur la culture de l'olivier dans le centre de la Tunisie*, Tunis 1893.
- 25- بورد(بول): تقرير للمقيم العام ... م س، ص. 1.
- 26- بورد(بول): تقرير للمقيم العام... م س، ص. 26.
- 27- ن.م، ص. 27
- 28- ن. م، ص. 27
- 29- بورد(بول): تقرير للمقيم العام ... م س، ص. 25.
- 30- ن.م، ص. 28.
- 31- ن. م، ص. 28.
- 32- ن.م، ص. 30.
- 33- ن.م، ص. 30.
- 34- الصباغ (عبد الرزاق) وليني (ش): غراسة الزيتون بالإيالة التونسية. الإدارة العامة للصلاحة والتجارة والاستعمار، مطبعة فيبر Weber، تونس، 1913، ص. 3.
- 35- بورد (بول): التقرير... م.س، ص. 30.
- 36- بورد (بول): التقرير... م.س، ص. 33.
- 37- ن. م، ص. 34.
- 38- ن.م، ص. 34.
- 39- الصباغ (عبد الرزاق) وليني (ش): غراسة الزيتون... م س، ص. 26.
- 40- بورد (بول): التقرير... م.س، ص. 34.
- 41- الصباغ (عبد الرزاق) وليني (ش): غراسة الزيتون... م.س، ص. 26.
- 42- بورد (بول): التقرير... م.س، ص. 30.

- Minangoin (N) : *Culture de l'olivier dans le centre de la Tunisie exploitation par Mgharci* 43
2. *et exploitation directe*, Tunis. Rapide, 1900, p
- 44- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 39
- 45- القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية... م س، ص. 31
- 46- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 44
- 47- م. س، ص. 42
- 48- ن. م. ص. 46
- 49- القسنطيني (الكراي): الأرياف المحلية... م س، ص. 99
- 50- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 25
- 51- بونسي (جون): الاستعمار والفلاحة... م س، ص. 172
- 52- مينانقوا (ن): غراسة الزيتون... م. س، ص. 15
- 53- م. س، ص. 16
- 54- أ.وش.خ.س. تونس 1885-1916، بك. 155، ص. 226، م 1، و 159-161: مراسلة الإقامة العامة لوزارة الخارجية بتاريخ 7 أوت 1893.
- 55- أ.وش.خ.س. تونس 1885-1916، بك. 155، م. س، م 1، و 166: مراسلة من المقيم العام لوزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 28 سبتمبر 1893.
- 56- ريبان (شارل): محاضرات حول... م س، ص. 45
- Bourde (Paul) : *rapport à Mr Rouvier Résident Général de France sur l'élevage de mouton* 57
en Tunisie, imprimerie rapide, Tunis, 1893.
- 58- م. س، ص. 7
- 59- أ.وش.خ.س. أوراق أعوان، أوراق روفيه، بك. 511، ص. 496، م 1، و 332-333. مراسلة المقيم العام للمراقبين المدنيين بتاريخ 28 ماي 1892.
- 60- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 5
- 61- ريبان (شارل): محاضرات... م. س، ص. 97
- 62- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 5
- 63- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 5
- 64- بديرة (المازري): التحديث والمستوطنون الفرنسيون في الساحل التونسي مع إطلالة القرن العشرين ضمن من اليزاكيوم إلى الساحل: مسيرة منطقة تونسية عبر العصور، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ندوة قسم التاريخ 1999، ص. 46
- 65- بورد (بول): التقرير... م. س، ص. 8
- 66- ن. م، ص. 9
- 67- ن. م، ص. 9
- 68- ن. م، ص. 8